الشريف التلمساني وإسهاماته الثقافية

أ. امحمد بوشريط*

مقدمة: لا يخامرنا الشك أن تلمسان قد أنجبت العديد من العلماء الذين خاضوا في ميادين معرفية شتى، إذ لم تبق شهرتهم حبيسة الدار، بل طارت شرقا وغربا وهذا ما تشهد به مؤلفات بعض المؤرخين الذين ترجموا لهم وأرخوا لتراثهم الثقافي، إلا أن هذا التراث منه ما نجا من عاديات الزمن، ومنه ما تلاعبت به رياح الدهر، أو عبثت به أيدي العابثين، ولكن هذا القليل الذي بقيت منه بعض الآثار وازدانت به دور المكتبات والأرشيف يمكن له أن يعطينا فكرة واضحة على هذا الإرث الحضاري الذي خلفه علماء هذه الحاضرة العلمية، وكان من هؤلاء العلماء الذين تركوا بصماتهم في هذا الميدان وحق لتلمسان أن تفخر بهم عالمها الشريف التلمساني.

وقبل التطرق إلى إسهامات هذا العالم الجليل، فحري بنا أن تكون لنا إطلالة ولو موجزة حول مشاركة بعض علماء هذه الحاضرة العلمية، ومدى إسهاماتهم في ميادين معرفية شتى، وقد ركزنا في هذه العجالة على نماذج من علماء تلمسان الذين ظهروا على الساحة الثقافية ابتداء من القرن السابع الهجري (13م) إلى غاية القرن التاسع الهجري (16م)، وهذا ما يوضحه لنا هذا الرسم البياني.

* – أستاذ مساعد أ في تاريخ المغرب الإسلامي– قسم التاريخ – جامعة معسكر.

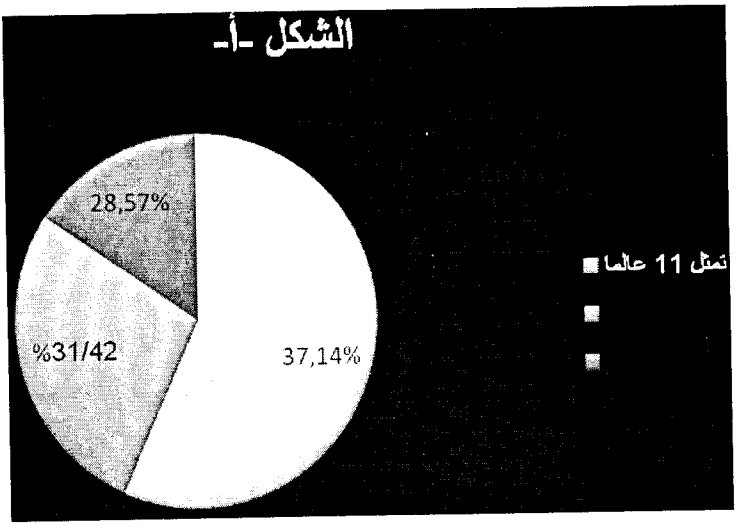
الشكل -أ-
28,57%
%31/42
37,14%
تمثل 11 عالما

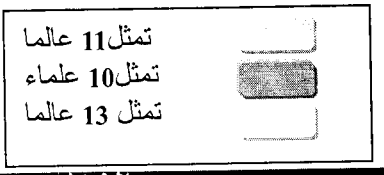
تمثل11 عالما
تمثل10 علماء
تمثل 13 عالما

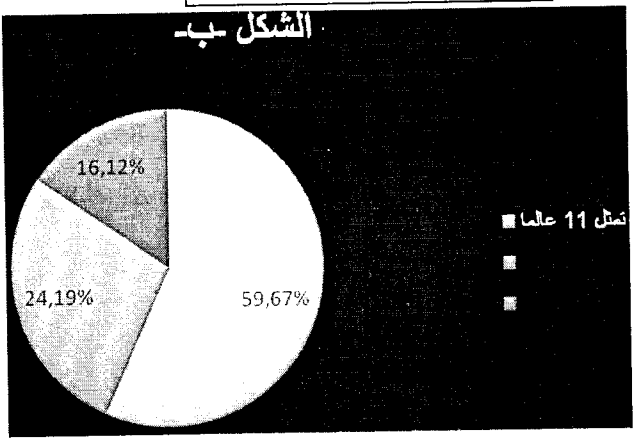
الشكل -ب-
16,12%
24,19%
59,67%
تمثل 11 عالما

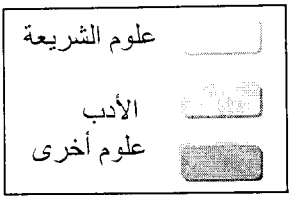
علوم الشريعة
الأدب
علوم أخرى

تمثل الدائرة النسبية شكل- أ- عدد العلماء التلمسانيين الذين وقع عليهم الاختيار، وكانت لهم مشاركة فاعلة في ميادين علمية شتى، اذ شهد القرن السابع الهجري (13م) مشاركة ما يربو عن 4231, % من هؤلاء العلماء الذين كانت لهم مثل هذه الإسهامات، ولم تقف عطاءات هؤلاء، بل استمرت إلى غاية القرن الثامن الهجري (14م) وستواصل لتسجل نسبة 5728, % لتشهد بعدها ارتفاعا ملحوظا في القرن التاسع الهجري (15م) اذ وصلت إلى 1437, % فأصبحت سوق الثقافة بتلمسان سوقا نافقة.

وأما عن أسباب رواج الثقافة بهذه الحاضرة، فيرجع إلى:

أ-الازدهار الاقتصادي الذي شهدته هذه العاصمة الثقافية، مما وفر الأمن والاستقرار، فكل ذلك ساعد العلماء للتفرغ لعطاءاتهم الفكرية.

ب-اعتناء الحكام بالجانب الثقافي، فقد كانوا هم من أهل العلم والثقافة فاهتموا ببناء دور العلم والمساجد، ولم يكتف هؤلاء بذلك بل أخذوا يقربون العلماء إليهم ويغدقون عليهم من الأموال، فكثر العلماء الذين تباهى بهم بلاط بني زيان، فحفلت لذلك مجالسهم بالأدباء والعلماء، فأصبحت تلمسان مزارا علميا يقصده كل من أراد أن ينهل من معين علمائها، فقصدوها من كل حدب وصوب.

ج- مكن اهتمام هؤلاء الحكام الذين عنوا بشؤون الثقافة من ظهور شخصيات تلمسانية لمعت في سماء المغرب الأوسط: مثل الشريف التلمساني.

أما الدائرة النسبية شكل- ب- فهي تمثل مشاركة علماء تلمسان في عدة علوم، وهذا ما يظهر لنا جليا من خلال استنطاقنا لهذه النسب.

فالنسبة الأولى والممثلة بـ 6759, % تمثل مساهمة هؤلاء العلماء في علوم الشريعة، منها: الفقه والحديث والتفسير والفرائض، وأما الأدب بشعره ونثره، فيقدر بنسبة 1924, % وهو بذلك يحتل المرتبة الثانية، ثم تأتي في المرتبة الثالثة علوم أخرى تشمل الحساب والهندسة والطب، بنسبة 1216, % ويعزى هذا التفاوت في النسب إلى:

أ- كان طالب العلم أول ما يتلقاه منذ حداثة سنه هي علوم الشريعة، ثم تهافت العلماء على الفقه، لأنه كان من العلوم التي كانت توصل صاحبها إلى الارتقاء إلى المناصب العلية وينال بها الخطط السنية الرفيعة، كخطة القضاء، إضافة إلى أن الفقيه كان يحظى بمكانة مرموقة في المجتمع.

ب- أما الأدب، فقد احتل المركز الثاني ضمن هذه العلوم، باعتبار الأدب له علاقة مباشرة مع علوم الشريعة وبخاصة العربية بلغتها ونحوها، كما كان الأدباء، وبصفة خاصة النثار، يحوزون على موطئ قدم في البلاط، فكانت تسند لهم مهمة إنشاء الرسائل بمختلف أنواعها، فأشرفوا على ما كان يعرف حينها بديوان الرسائل.

ج- أما باقي العلوم الأخرى، فكان اهتمامهم بها قليل، وكان ظهورها متأخرا فانحصرت هذه العلوم بأيدي علماء قلة، وبرز بعضهم في الحساب باعتبار هذا العلم له علاقة مباشرة بالفرائض الذي يحتاج إلى الحساب لتوزيع المواريث.

أضف إلى ذلك، عدم إقبال طالب العلم على بعض العلوم كعلم الكلام والفلسفة، لأنه في رأي البعض قد يخرج صاحبه عن الدين، وقد يكفر كل من يخوض فيه.

- التعريف به وبنسبه:

- التعريف به: هو محمد بن أحمد بن علي بن يحي بن علي بن محمد بن القاسم بن حمود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعرف في المصادر التي ترجمت له بالشريف التلمساني.[1]

لقد اختلفت المصادر في السنة التي ولد فيها، فقد ذكر ابن خلدون على لسان الشريف التلمساني نفسه -باعتبار أن ابن خلدون تتلمذ على يديه- أنه ولد سنة 710هـ الموافق لسنة 1310م.[2] وقد نقل عنه نفس السنة كل من التنبكتي[3] وابن مريم[4] في حين ذكر لنا البسيلي[5] والسراج[6] أن مولده كان عام 716هـ/1316م.[7] إلا أن هذا التاريخ الأخير لا يمكن اعتماده لسببين الأول: أن ابن خلدون ذكر سنة 710هـ على لسان الشريف التلمساني، وهي رواية مباشرة صادرة من المعني بالأمر أضف إلى ذلك فالونشريسي ذكر أن سنة 716هـ هي خاطئة، وعليه يمكن لنا ترجيح السنة التي اعتمدها ابن خلدون في كتابه الرحلة، باعتبار أن التلميذ أدرى بشيخه.

أما فيما يتعلق بسنة وفاته، وهي سنة 771هـ/1370م، فقد اتفقت كل المصادر التي ترجمت له على نفس السنة، ولم يرد أي اختلاف بين من أرخوا لهذه الشخصية العلمية.[8]

نسبه: ينتمي محمد بن أحمد التلمساني إلى أسرة تنتسب إلى الأشراف، فقد رفع التنبكتي نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- وهذا ما صرح به ابنه عبد الله، ومنه

جاءت تسمية الجد باني شرف هذا البيت المنيف بالشريف التلمساني.[9] وقد أكد نسبه هذا السراج في فهرسته[10] حين ترجم لمكانته العلمية فقال: "الشريف نسبا، العظيم منصبا..."[11] ونسبه هذا لا غبار عليه، وهذا ما يفهم من قول ابن خلدون: "وكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم، وربما يغمز فيه بعض الفجرة، ممن لا يزعه دينه، ولا معرفته بالأنساب، فيعد من اللغو، ولا يلتفت اليه"[12].

أما نسبته إلى العلوي، فنسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمى العلوين[13] وقد وافقه الرأي في ذلك ابن مريم[14]، وعلى الرغم من أن التنبكتي قد نقل عن ابن خلدون، فقد نسبه إلى العلوني، ثم أضاف قوله: وهذا نسبة للعلونيين وهي قرية بتلمسان[15]، وتبعه في ذلك الحفناوي[16]، في حين ذكر صاحب شجرة النور الزكية نسبته إلى هذه القرية بهذا الرسم – العلويني.[17].

من حصاد هذه الفقرة يظهر لنا الاختلاف الوارد في رسم حروف هذه الكلمة وأظن أن هذا الاختلاف قد يكون خطأ في النقل أو من الناسخ، وبذلك أرجح النسبة التي وردت عند ابن خلدون وهي: العلوي، والتي نقلها عنه ابن مريم، فعودة إلى: مجهول توضح هذا اللبس، فعند تعريفه لتلمسان يذكر في مضان هذه الترجمة قوله: "وكان هذا المغرب الأوسط قد تملكه العلويون من بني إدريس".[18]

وعلى ضوء ما تقدم ذكره، فالنسبة الواردة عند ابن خلدون – العلوي – هي الأصح باعتبارها تنتهي إلى العلويين من الأدارسة الذي حكموا المغرب والأندلس.

2–شيوخه وتلامذته:

شيوخه:

– المشدالي: هو عمران بن موسى بن يوسف المشدالي المكنى بأبي موسى (670هـ–745هـ/1271م–1344م)، كان فقيها حافظا علامة من المحققين الكبار[19]، أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد، جد المقري صاحب النفح، الذي قال في حقه: "هو حافظها[20] ومدرسها ومفتيها" درس بتلمسان الحديث والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض، وتميز باتساع أفقه في الفقه والجدل، وكان له باع فيما سواها من العلوم.[21] من آثاره: "اتخاذ الركاب من خالص الفضة" رسالة وله فتاوى نقل بعضها في المعيار.[22]

– ابنا الإمام: هم أخوان من "برشك" من أعمال تلمسان، وكان اسم أكبرهم أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت741هـ/1340م) كان من الفقهاء علامة، آخر صدور أعلام الغرب، أجمع كتاب التراجم والسير أنه كان من أشهر علماء عصره، فلم يكن فيه أعظم رتبة ولا أعلم منه، فطارت شهرته شرقا وغربا.[23]

وأما الأخ الأصغر، فهو أبو موسى عيسى بن محمد (ت749هـ/1348م)، كان أخر فقهاء تلمسان، وقد وصفته كتب التراجم بـ "العلامة النظار، أخر أهل النظر، جمع أشتات المعارف".[24]

– السطي: هو محمد بن علي بن سليمان (ت749هـ/1348م) ينسب إلى قبيلة سطة من بطون أوربة، كان أحفظ الناس للمذهب وأفقههم فيه، أخذ الفقه على أبي الحسن الصغير[25] والفرائض على أبي الحسن الطنجي[26]، فنبه في الفقه وأصبح فيه نبيها لا يجارى فيه حفظا وفهما، كانت تقرأ عليه تبصرة اللخمي[27] وكان يقوم هو بتصحيحها من إملائه وحفظه.[28]

– الآبلي: هو محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني (681هـ–757هـ) أصله من آبلة[29] [30]، وقد وصفه تلميذه المقري بالشيخ العلامة بسبب علو منزلته العلمية[31]، كان أعلم خلق الله في فن المعقول[32]. قرأ كتب التعليم وحذق فيها ولما طال الحصار الكبير بتلمسان[33] خرج منها وأدى فريضة الحج، ثم عاد وقرأ المنطق على الشيخ أبي موسى عيسى بن الإمام، ثم خرج من تلمسان قاصدا مراكش ولزم بها العالم الشهير أبا العباس ابن البناء[34]، فأخذ عنه العلوم العقلية، فأصبح من جملة العلماء، حتى حذق في العلم العديد من تلامذته، نذكر منهم: الشريف التلمساني وابن مرزوق الجد وأبي عثمان العقباني وابن خلدون وغيرهم.[35]

ب– تلامذته:

– عبد الله بن محمد الحسني ابنه (748هـ–791هـ/1347م–1390م): أخذ العلم عن والده، فأصبح بعدها إمام وقته في التفسير والجدل والمنطق والطبيعيات والإلهيات والهندسة والتصوف، وقرأ الصحيحين، كان عالما باللغة والفقه، وتعلم النحو على ابن حيايّ[36]، وقد جلس هذا الابن مجلس أبيه بعد وفاة هذا الأخير، حتى قال بعض أكابرهم: "انتفعت به في الأصول أكثر من أبيه لحسن بيانه وتقريبه."[37]

- ابـــن خلـــدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الاشبيلي (732هـــ-808هـــ/1332م-1406م) قاضي القضاة، العلامة الحافظ المؤرخ، وقد رفع من مترلته العلمية ابن الخطيب، فقال: "متقدم في فنون عقلية ونقلية... كثير الحفظ...بارع الخط"[38]، فأصبح من العلماء والأدباء الحكماء، ومن المؤرخين الذين طارت شهرتهم شرقا وغربا، وأكبر أثر له كتابه الذي اشتهر به، فطبقت شهرته الأفاق "ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر" إضافة إلى مؤلفات أخرى نذكر منها: "تلخيص المحصل" لفخر الدين الرازي و "شرح الرجز" لابن الخطيب في الأصول، وشرح قصيدة ابن عبدون.[39]

- الشاطبي: هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المكنى أبا إسحاق (ت790هـــ/1388م)، كان إماما جليلا، من المجتهدين المحققين والفقهاء المحدثين، خاض في علوم اللغة والنحو، وفي بيان مترلته العلمية يقول التنبكتي: "كان من أفراد محققي العلماء الأثبات وأكبر متقني الأئمة الثقات، ذو القدم الراسخ في العلوم، والإمامة العظمى في الفنون، فقها وأصولا وتفسيرا، وحديثا وعربية وغيرها". له عدة تأليف نذكر منها: تأليف نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الإجادة وكتب المجالس شرح فيه آيات وأحاديث من كتاب البيوع في البخاري، وشرحه على ألفية مالك في أربعة أسفار، وغيرها من التأليف.[40]

هذه نماذج من بعض من تلقوا عن عالمنا هذا، العلم في ميادين معرفية شتى، فكان هؤلاء الطلبة أوفر حظ في زمنه بما أخذوه عنه، وذلك بسبب حسن إلقائه للدروس والطريقة السهلة التي اتبعها في تعليمه، إذ كان لا يفضل عليهم أحدا مهما كانت مترلته في المجتمع، إذ كان يجمعهم في بيته، ويترك لكل واحد من تلامذته حرية اختيار العلم الذي يريد الانتفاع به. ومن جهة أخرى، كان يتكفل هو بإطعام هؤلاء الطلبة بما يحتويه مترله من طيب الطعام، مما جعلهم يفضلونه على سائر الشيوخ.[41]

لقد أقبل الشريف التلمساني على مزاولة التعليم في حياة شيوخه مما أكسبه تجربة في هذا الميدان والتفوق فيه، فأقبل عليه الطلبة من كل حدب وصوب[42]، وتخرج على يديه صدور العلماء ونجباء الأولياء وأعيان الفضلاء عدد لا يحصى[43]، وعلى حد قول التنبكتي: أنه لم ينتفع الطلبة بأحد في مصر من الأمصار ما انتفعوا في زمانه.[44]

2- مكانته العلمية: تتوضح لنا مكانة هذا العالم من خلال أقوال العلماء الذين أثنوا عليه وعلى علمه، فمن هؤلاء:

ابن مرزوق الحفيد[45] تلميذه، والذي قال في حقه: أنه كان من أعلم شيوخ أهل عصره باتفاق الجميع.

ونحا نحوه السراج في فهرسته، فقال: "العالم العلامة الشهير الكبير القدوة...كان أوحد رجال الكمال علما...عالما بعلوم المنقول والمعقول، بلغ درجة الاجتهاد أو كاد، أحد راسخي العلماء وآخر الأئمة المجتهدين."[46]

وفي بيان منزلته في العلم، قال ابن خلدون: "العلامة فارس المعقول والمنقول"، وأضاف مخلوف "الفهامة المحقق العمدة الحافظ...، كان من أعلام العلماء والأئمة الفضلاء أعلم من في عصره بإجماع."[47]

وقال البعض الأخر: "نسيج وحده، انتهت إليه إمامة المالكية بالغرب وضربت إليه أباط[48] الإبل شرقا وغربا، فهو علم علمائها ورافع لوائها، أحيا السنة وأمات البدعة، بحر بعلمه العقول."[49]

إن مكانة هذا العالم لم تأت من فراغ، بل نجده تصدر لتلقي العلم وهو لا يزال حدثا، إذ كان يبلغ من العمر آنذاك إحدى عشرة سنة، وكان أثناء حضوره لحلقات العلم يبقى ملازما لشيوخه لأشهر عدة لا يترع ثوبه ولا عمامته لكثرة انشغاله بالعلم، حتى أنه إذا غلب عليه النوم، نام قليلا ثم يرجع بعدها إلى حلقات العلم.[50]

وخير من يشهد اعتكافه على طلب العلم ابنه عبد الله، حيث يروي لنا أنه بقي مدة ستة أشهر لم ير أولاده، فكان يقوم في الصباح الباكر وهم نيام، وذلك كله بسبب انشغاله بالعلم، وحتى أنه في أثناء صومه في شهر رمضان، كان يوضع له الطعام ليفطر عليه، فينشغل عنه بطلب العلم، حتى يلحق عليه سحور ذلك اليوم ولن يتناول منه شيئا حتى يصبح ويواصل صومه، وكل ذلك لشغله الشاغل بأمور العلم، حتى أن بعضهم وجد بين يديه سبعين كتابا يطالعها.[51]

من خلال حصاد الفقرات السالفة الذكر، تتوضح لنا جليا مكانة الشريف التلمساني العلمية، والتي شهد له بها تلامذته وشيوخه، وهذا ما يتأكد لنا من قول الآبلي، فإذا ما أشكلت

عنده مسألة من المسائل، فكان يقول: "انتظروا الشريف". وكان ابن عرفة يقول له: "غايتك في العلم لا تلحق".[52]. كما كان لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة والتأليف البديعة، يرسل له بتأليفه، ويطلب من الشريف التلمساني أن يكتب عليها بخطه.[53]

2-إسهاماته الثقافية: لقد أجمعت كتب التراجم والطبقات على أن الشريف التلمساني كانت له إسهامات فاعلة في ميادين معرفية شتى.

ففي الفقه كانت له فيه إسهامات جليلة، وهذا ما يفهم من مضان كتب التراجم التي فصلت في ترجمته، فهذا السراج قال: "شيخنا الفقيه العالم العلامة الشهير" ثم يضيف قائلا: "بأنه كان عالما بعلوم المنقول."[54]

وما يدل على تمكنه في هذا العلم، فإن الفقيه موسى العبدوسي[55]وعلى الرغم من أنه أسن منه، والمعدودين من كبار فقهاء فاس، كان يبحث عن فتاويه وتقاييده ليكتبها[56] إضافة إلى شهادة القاضي أبو علي بن هدية[57] الذي بين لنا مكانته في هذا العلم، فقال: "كل فقيه في زماننا هذا، أخذ ما قدر له من العلم الا الشريف، فالله أعلم حيث ينتهي."[58]

ويوضح لنا التنبكتي أن له في هذا العلم باع طويل، تلك القصة التي أوردها بين ثنايا كتابه، إذ يقول أن بعض الفقهاء قام بتحقيره واستصغاره في عيني السلطان أبي عنان[59] أنه لم يكن متبحرا في الفقه، فأرسل للفقهاء الحضور في مجلسه وأمر بقراءة حديث "إذا ولغ الكلب في إناء أحدهم" وذلك ليمتحنه، فخاض في هذه المسألة دون إبطاء في إعطاء الإجابة، فقال: هذا الحديث فيه خمسة وعشرون فرقا، وقام بسردها، ثم أخذ في الترجيح وكأنه يقرؤها في كتاب مفتوح، فوبخ السلطان حساده وشهد له بتفقهه.[60]

ونتيجة لتفقهه، فقد بلغ بعلمه هذا، درجة الاجتهاد أو كاد، وأصبح من العلماء الراسخين في الفقه[61]. وترأس الفتوى إلا أنه كان متورعا فيها، يتحرى قدر المستطاع في مسائل الطلاق، وكان يحاول أن يدفعها عن نفسه كلما استطاع إلى ذلك سبيلا.[62] وبسبب ورعه وعلمه، فقد كان مجلسه مجلس نزاهة ودراية وتحقيق، فإذا تكلم في مسألة أوضحها طوال اليوم.[63]

أما القرآن وعلومه، فقد اطلع عليهما وهو لا زال حدثا، فذات يوم حضر عند شيخه أبي زيد ابن الإمام في جلسته في التفسير، فذكر نعيم الجنة، فقال له الشريف التلمساني وهو

صبي، أيقرأ فيها العلم؟ فأجابه بنعم، وقال له: وفيها ما تشتهيه الأنفس، فقال: ولو قلت لا، لقلت: لا لذة فيها فعجب منه شيخه ودعا له.

كان له في هذا العلم اليد الطولى، بسبب إقباله على قراءة القرآن[64]، فكان يقرأ كل ليلة ثمانية أحزاب في صلاته، ومثله في أول النهار، ويواظب على قراءة الحزب دائما، ويرفق ذلك بقراءة التفسير نحو ربع حزب كل يوم.[65]

لقد حرص عالمنا هذا، على تعلم وتعليم القرآن الكريم، وذلك بإغداق المال على طلبته، وهذا ما حدث له بفاس، فذات يوم دخل عليه أحد الطلاب وذكر له أنه قرأ القرآن بالقرويين، فما أعطي شيئا، فتأسف الشريف لذلك، وفي اليوم التالي أرسل إليه مع طلبته ما يحتاجه من المال.[66]

وما يدل على علو منزلته في هذا العلم، أن أبا عنان أمر الفقيه المقري بإقراء التفسير بحضرة العلماء، فأبى وقال له: أن أبا عبد الله الشريف التلمساني أعلم بهذا العلم مني، فلا يمكنني الإقراء وهو حاضر المجلس، فقام الشريف وخاض في علم التفسير في مجلس حافل بالعلماء، ولإعجاب السلطان بحديثه، نزل في مكانه الرفيع وجلس مع الجمع على الحصير، فأعجب به كل من حضر حلقته هذه وشهد له السلطان بتفوقه في هذا العلم، وقال: "إني أرى العلم يخرج من منابت شعره". وهذه شهادة يعتز بها هذا العالم.[67]

لقد حاز عصا السبق في علم التفسير بسبب تفسيره للقرآن مدة خمس وعشرين سنة، فكان مجلسه يحف بكبار العلماء والصلحاء والملوك وصدور الطلبة لا يتخلف منهم أحد، بسبب علمه بقراءته ورواياته وفنون علومه وبيان أحكامه وناسخه ومنسوخه وغيرها.[68]

فمن السور التي قام بتفسيرها، سورة آل عمران، فعند وصوله إلى قوله تعالى ﴿يستبشرون﴾[69] مرض بعدها ثمانية عشرة يوما، وذكر ابنه أبو يحي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد (757هـ-826هـ/1356م-1423م) أنه قبل المصحف في مرضه وقال: "اللهم كما عززتني به في الدنيا، فاعززني به في الآخرة."[70]

وفي الحديث كان إماما فيه، وعالما بفقهه وغريبة ومتونه و رجاله وأنواع فنونه، إضافة إلى دفاعه عن السنة من أي إشكال.[71]

كما كانت له مشاركة في أصول الفقه، فذات مرة عرضت في مجلس علم مسألة أصولية فلم يجدوا من يبث فيها، فأشاروا إلى الشريف، وكان أيامها مقيما بسجلماسة[72]، فطلب من عاملها أن يعطيه نفقه وكسوة ليتحمل بها عناء السفر، فوصل إليهم وبين المسألة التي كانوا فيها مختلفون.[73]

كما كان له في التصوف يد طولى، فقد استفاد منه في هذا العلم أبو عبد الله ابن عبد السلام[74] الذي كان يحضر مجلسه واستفاد منه في هذا الباب واستعظم رتبته في هذا العلم، فقد كان ابن عبد السلام هذا، يستمع إليه ويفضل مجلسه العلمي ويعرف ما مدى مكانته في هذا العلم، حتى أن البعض زعم أنه كان يخلو به في بيته ويقرأ عليه فصل التصوف من كتاب "الإشارات" لابن سينا[75]، فقد كان الشريف التلمساني قد استفاد من شيخه الآبلي في هذا الميدان.[76]

إضافة إلى تمكنه في الأدب، وهذا ما يؤكده الحفناوي بقوله: كان "من أعلم الناس بالعربية وعلوم الأدب نحوا وبيانا، حافظا للغة والغريب والشعر والأمثال"[77]

وما يدل على تمكنه في اللغة العربية، فعند ما لقي بتونس ابن عبد السلام، فتكلم هذا الأخير في الذكر، هل هو حقيقة في ذكر اللسان؟ فأجابه الشريف بقوله: أن الذكر ضده النسيان ومحل النسيان القلب لا اللسان، وكأنه يقتبس من آي القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿إنما يذكر أولوا الألباب﴾[78] بذلك حاز على مكانة مرموقة لدى هذا العالم الجليل، وشهد له بتفوقه حين قال: "ما أظن في المغرب مثله"[79].

وعلاوة على ما كان يحمله من الفقه وعلوم العربية وسائر علوم الشريعة، فقد كانت له مشاركة في علوم أخرى، كالحساب والهيئة والفرائض[80]. وهذا ما يؤكده التنبكتي وتبعه في ذلك الحفناوي بقولهما: كان "إماما في العلوم العقلية من منطق وحساب وفرائض وتنجيم وهندسة وموسيقى وتشريح وفلاحة وكثيرا من العلوم القديمة."[81]

إضافة إلى اطلاعه على عدة مؤلفات منها "كتاب الشفا" لمؤلفه ابن سينا[82] وهو يتكون من ثمانية عشرة مجلدا[83] والذي أخذه عن شيخه الآبلي، زيادة على تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد الحفيد[84][85].

2- مؤلفاته: ولشدة عناية هذا الشيخ بالإقراء والدرس، فلم يسعفه الحظ للإكثار من وضع الكتب والتصنيف والتأليف[86]، فإنه لم يبلغنا عنه بالنسبة لاتساع أفقه المعرفية إلا القليل، وهذا ما يؤكده كل من ترجم له، فهذا التنبكتي يقول: "كان قليل التأليف أكثر اعتنائه بالإقراء"[87] وعلى الرغم من ذلك، فقد كان حسن البسط في التأليف.[88]

فمن مؤلفاته نذكر:

كتاب في القضاء والقدر: حقق فيه تلك العلوم الغامضة بأحسن تعبير، وكان يرجع إليه علماء المغرب في حل المشكلات.[89]

مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول: بهذا العنوان ذكره التنبكتي، وقال: بأنه نزل في مسائل الفقه على الأصول.[90] في حين ذكره مخلوف مختصرا "المفتاح" في أصول الفقه.[91] وقد طبق فيه مسائل الفقه مع الأصول. وكثيرا ما كان علماء المغرب يرجعون إليه في حل المشكلات.[92]

شرح جمل الخونجي: وهو كتاب في المنطق، ويعتبر من أجل كتب الفن، انتفع به الناس كثيرا قراءة ونسخا وتأليفا.[93]

له فتاوى ورسائل وأجوبة في مسائل علمية: منها في نوازل الأيمان و النذور[94] وفي باب من أوصى بثلث ماله واشترط أنه لا يرجع في وصيته[95] وفي باب "ما حكم الروايتين إذا نقلتا عن مجتهد في المذهب[96]، وفي باب "أسئلة وإشكالات في المنطق والفلسفة والكلام".[97]

الخاتمة: لقد أنجبت مدينة تلمسان عددا من العلماء، حتى امتلأت كتب التراجم والطبقات بأسماء هؤلاء، بما تركوه من آثار على الساحة الثقافية، وكان من بين هؤلاء الشريف التلمساني الذي عد بحق إمام المغرب في العلم بفضل إسهاماته العلمية، والتي لا زالت تشهد عليه إلى يومنا هذا.

وعلى ضوء ما تقدم ذكره، فقد توصلت إلى النتائج التالية:

- يعتبر الشريف التلمساني من العلماء الأفداد التي زخرت بهم حاضرتهم تلمسان، فقد خاض في علوم شتى، فإضافة إلى علوم الشريعة التي كانت أول العلوم التي يجب أن يخوض فيها كل طالب علم، إلا أن معارفه تعدتها إلى علوم نقلية أخرى، زيادة على معرفته بالعلوم العقلية، كالهندسة والحساب وغيرها من العلوم الأخرى.

ب- استطاع هذا العالم أن يكون مدرسة تتلمذ بها عدد من العلماء أصبحوا بعدها شيوخ عصرهم في علوم شتى، كان ابنه عبد الله أحد هؤلاء وشهدت المصادر بتفوق العلمي، حتى فاق شيخه.

جـ- لقد كرس شيخنا هذا، جهدا جهيدا في عملية الإقراء، حتى غصت مجالسه العلمية بمختلف طالبي العلم سواء أكانوا من الطبقة الحاكمة والراقية أو من طبقة العامة، فاستفاد هؤلاء من علمه أيما استفادة.

د- إن المكانة التي وصل إليها هذا العالم، كانت بفضل إسهاماته في ميادين معرفية شتى، فحاز على مكانة سياسية مرموقة لدى الحكام، ولدى شيوخه ومريديه من طلبة العلم.

هـ- انصراف الشيخ التلمساني إلى التدريس قد انعكست سلبا على مجهوداته في عملية التأليف، فإذا ما قمنا بحصرها، فهي تعد على أصابع اليد.

الهوامش

1- التبكتي: نيل الابتهاج بطريز الديباج- وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية- منشورات كلية الدعوة الإسلامية -طرابلس -الجماهيرية العربية الليبية -1989م -ص430. التبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج -تحقيق: د/ علي عمر - مكتبة الثقافة الدينية -القاهرة -ط1 -1425هـ- 2004م -ج2 -ص69. ويذكره ابن خلدون بالشريف الحسني. ابن خلدون: رحلة. عارضها بأصولها وعلق على حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي -دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان -ط1 -1425هـ/2004م- ص69.

2- ابن خلدون: نفسه -ص71.

3- التبكتي: نيل الابتهاج -ص432 -نفسه: كفاية المحتاج -ص71.

4- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان -ديوان المطبوعات -الجزائر -1986م -ص167.

5- هو أحمد بن محمد البسيلي المتوفي سنة 830هـ/1427م، أخذ التفسير عن شيخه أبي عبد الله محمد بن عرفة المالكي (ت803هـ/1400م)، من تصانيفه: تفسير القرآن الكريم، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون -دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت -لبنان -1402هـ- 1982م -مج1 -صص438-439. رضا كحالة: معجم المؤلفين-اعتنى به وجمعه أخرجه: مكتب تحقيق التراث -مؤسسة الرسالة -ط1 -1414هـ-1993م -ج1 -ص253.

6- هو يحي بن أحمد بن محمد بن حسن بن القاسم الغزي الحميري الرندي ثم الفاسي المتوفي بفاس سنة 803هـ/1400م، كان فقيها محدثا حيث انتهت إليه رياسة الحديث في وقته إضافة إلى اطلاعه على الأدب لغة ونظما ونثرا. من آثاره فهرسته التي ترجم فيها لشيوخه. التبكتي: نيل الابتهاج -ص634 -نفسه: كفاية المحتاج -ج2 -ص278. ابن القاضي المكناسي: درة الحجال في غرة أسماء الرجال -حققه وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان -ط1 -1423هـ/2002- ص448. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى -ضبط واستدراك: مكتب البحوث والدراسات -دار الفكر -بيروت -لبنان -ط1 -1418هـ-1997م - ص209 -الزركلي: الأعلام -دار العلم للملايين -بيروت-ط17 -2007م -ج8 -ص136.

7- التبكتي: كفاية المحتاج -ج2 -ص71.

8- نفسه -نفس الجزء والصفحة. ابن خلدون: رحلة -ص71. وينظر عادل نويهض -معجم أعلام الجزائر -من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر -مؤسسة نويهض الثقافية -بيروت -لبنان -ط3 -1403هـ- 1983م -ص187.

9- التبكتي: كفاية المحتاج -ج2 -ص69.

10- لقد صدر فهرسته هذه، بقوله: "الحمد لله الذي بحمده يجب أن يستفتح..." يوجد النصف الأول عند بعض الكاتبين بفاس، وأما النصف الثاني يعد الآن مفقودا لأن صاحب "السلوة" وصفها في آخر كتابه بأنها في سفرين. ابن سودة: نفسه -ص209.

11- التبكتي: نفسه -ج2 -ص70. نفسه: نيل الابتهاج -ص431. الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف -مؤسسة الرسالة- بيروت والمكتبة العتيقة -تونس -ط2 -1405هـ- 1985م -ج1 -ص111. ابن خلدون: نفسه -ص69.

12- ابن خلدون: نفسه -ص69.

13- نفسه -ص69.

14- ابن مريم: نفسه -ص164.

15- التبكتي: نيل الابتهاج -ص430. نفسه -كفاية المحتاج -ج2 -ص69.

16- الحفناوي: نفسه -ج1 -ص111.

17- مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية -دار الفكر -بيروت -لبنان -دت -ص234.

18- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار -وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب -نشر وتعليق: د/ سعد زغلول عبد الحميد - دار النشر المغربية -الدار البيضاء -المغرب -1985م -ص177. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار -تحقيق: د/ إحسان عباس - مكتبة لبنان -ط2 -1984م -ص135.

19- التبكتي: كفاية المحتاج -ج1 -ص290. نفسه: نيل الابتهاج -ص350.

20- الهاء: تعود على تلمسان.

21- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي -دار الفكر -بيروت -لبنان -ط1 -1419هـ- 1998م -ج6 -ص187.

22- محمد مخلوف: نفسه -ص220. وينظر نماذج من فتواه عند الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب -خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: د/محمد حجي -نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية - 1401هـ- 1981م -ج1 -ص116 -ج2 -ص36 -ج4 -ص480 -ج6 -ص44 -ج8 -ص261-ج9 - ص310 -ج11 -ص383. وينظر عادل نويهض: نفسه -ص ص300-301.

23- التبكتي: كفاية المحتاج -ج1 -ص187. ابن مريم: البستان -ص125. ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب - دراسة وتحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان -ط1 -1417هـ- 1996م -ص250.

24- التبكتي: نفسه -ج1 -ص187 -ص232. ابن فرحون: نفسه -ص250.

25- هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير ت719هـ كان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتوى ولما ولي خطة القضاء بفاس. ابن فرحون: نفسه -ص305 ولمزيد من المعلومات ينظر: ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة -شرحه وضبطه وقدم له أ-د/ يوسف علي طويل- دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان -ط1 -1424هـ-2003م -ص158. ومخلوف: شجرة النور الزكية -ص215. السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى -دار الكتاب العربي -الدار البيضاء -المغرب -1418هـ- 1997م- مج1- ج3 -ص ص101-102.

26- هو علي بن عبد الرحمن بن تميم اليفرني، المعروف بالطنجي (ت734هـ/1335م) كان فقيها فرضي حسابي. التبكتي: نفسه -ج1 -ص267. نفسه: نيل الابتهاج -ص ص325-326. مخلوف: نفسه -ص218. ابن القاضي المكناسي: ذرة الحجال -ص404.

27- هو أبو الحسن علي بن محمد اللخمي القيرواني (ت478هـ/1085م) تنظر في ترجمته ابن فرحون: نفسه –ص298. مخلوف: نفسه –ص117.

28- ابن خلدون: نفسه –ص48. التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص50. نفسه –نيل الابتهاج –صص408-409. مخلوف: نفسه –ص221.

29- هي قرية من قرى الأندلس تقع في بجاية. الحميري: نفسه –صص79-80.

30- ابن خلدون: نفسه –ص49.

31- المقري: نفسه –ج6 –ص203.

32- التبكتي: نيل الابتهاج –ص411.

33- ينظر عن هذا الحصار. ابن سماك العاملي: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية –دراسة وتحقيق: أ/د. بوباية عبد القادر –دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط1- 2010 –صص271-272. ابن خلدون: يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد –تقديم وتحقيق وتعليق: د/ عبد الحميد حاجيات- المكتبة الوطنية –الجزائر –1400هـ/ 1980م –ص211.

34- تنظر ترجمته عند التبكتي: نيل الابتهاج –صص83-84.

35- ابن خلدون: رحلة –ص41. التبكتي: نفسه –ص416.

36- هو محمد بن علي بن حياتي الغافقي الأندلسي. التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص96.

37- التبكتي: نفسه –ج1 –ص170. نفسه: نيل الابتهاج –صص225-226. مخلوف: نفسه –ص234. الخفاوي: نفسه –ج2 –ص245 وما يليها.

38- ابن الخطيب: الإحاطة –ج3 –ص377.

39- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع –مكتبة الحياة –بيروت –لبنان –مج2 –ج4 –ص145 وما يليها.

40- التبكتي: نيل الابتهاج –ص250 وما يليها. البغدادي: هدية العارفين –ج5 –ص529. بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي –نقله عن الاسبانية –حسين مؤنس –مكتبة الثقافة الدينية –القاهرة –مصر –دت –ص259. وما يليها. رضا كحالة: نفسه –ج2- صص119-120.

41- التبكتي: كفاية المحتاج –ج1- ص91-93. نفسه: نيل الابتهاج –صص48-49. الزركلي: الأعلام –ج1- ص75.

42- التبكتي: نفسه –ج2 –صص73-74. نفسه –ص435. الخفاوي: نفسه –ج1 –ص115.

43- التبكتي: نفسه –ج2 –ص72. الخفاوي: نفسه –ج1 –ص114.

44- الخفاوي: نفسه –ج1 –ص119.

45- التبكتي: نيل الابتهاج –ص437.

46- تنظر ترجمته عند ابن مريم: نفسه –ص27 وما يليها.

47- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص70. الخفاوي: نفسه –ج1 –ص111.

48- ابن خلدون: رحلة –ص69. مخلوف: نفسه –ص234.

49- آباط وهو من الإبط، مارق من الرمل وباطن المكب. الفيروز آبادي: القاموس المحيط –ضبط وتوثيق: يوسف البقاعي –دار الفكر –بيروت –لبنان –1425هـ- 1426هـ/ 2005م –ص592. وينظر الزمخشري: أساس البلاغة –تحقيق: أ –عبد الرحيم محمود –دار المعرفة –بيروت- لبنان –دت –ص1.

50- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص71. نفسه –نيل الابتهاج –ص432. الخفاوي: نفسه –ج1 –ص113.

51- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص72. الخفاوي: نفسه –ج1 –ص114.

52- نفسه –ج2 –ص77. نفسه: نيل الابتهاج –ص439.

53- نفسه –ج2 –ص74.

54- نفسه –ج2 –ص75. نفسه –نيل الابتهاج –ص438.

55- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص70. نفسه –نيل الابتهاج –صص430-431.

56- هو موسى بن محمد بن معطي أبو عمران القاسي، ينظر ترجمته عند التبكتي: نفسه –ج2 –صص249 –250. نفسه –نيل الابتهاج –صص604-605. مخلوف: شجرة النور الزكية –صص234-235. ابن قنفد. كتاب الوفيات –تحقيق: عادل نويهض – مؤسسة نويهض الثقافية –بيروت –لبنان –ج1 –ص117.

57- التبكتي: نيل الابتهاج –ص436. الحفناوي: تعريف الخلف...ج1- ص117.

58- ينظر عنه: البغدادي: هدية العارفين –مج3 –ص212. حاجي خليفة: كشف الظنون –مج1 –ص289. رضا كحالة: معجم المؤلفين –ج3 –ص734.

59- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص75. نفسه –نيل الابتهاج –ص436. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص117.

60- ينظر عنه ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين –تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور –المطبعة الملكية –الرباط –ط3 – 1423هـ/2003م –ص37.

61- التبكتي: نفسه –ج2 –ص76. نفسه –نيل الابتهاج –ص437. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص118.

62- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص70.

63- التبكتي: نيل الابتهاج –صص436-437. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص118.

64- نفسه –ص438.

65- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص72. نفسه –نيل الابتهاج –ص433. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص113.

66- الحفناوي: نفسه –ج1 –صص119-120.

67- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص73. نفسه –نيل الابتهاج –ص434.

68- نفسه –ج2 –ص74. نفسه –ص436.

69- نفسه –ج2 –ص75. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص117.

70- سورة آل عمران –الآية 171.

71- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص79.

72- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص75. نفسه –نيل الابتهاج –ص436.

73- سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة وحولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومياه وبساتين كثيرة. البكري: المسالك والممالك –حققه ووضع فهرسه: د/ جمال طلبة –دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط1 –1424هـ- 2003م. ج2- ص332.

74- التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص73.

74- قاضي الجماعة بتونس، إمام عالما حافظا متفننا في علمي الأصول والعربية، وعلم الكلام وعلم البيان فصيح اللسان، عالما بالحديث، لم يكن في بلده في وقته مثله. ابن فرحون: الديباج المذهب –ص418. ولمزيد من المعلومات عنه ينظر الباهي: تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا –تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي –دار الآفاق الجديدة –بيروت- لبنان –ط5 –1403هـ- 1983م. ص161 وما يليها.

75- الزوزني: تاريخ الحكماء والمسمى: المنتخبات الملتقطات من إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي- تحقيق: يوليوس أليرت- مكتبة الآداب –القاهرة –ط1 –1429هـ- 2008م –ص418. ولمزيد من المعلومات عن ابن سينا ينظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في

طبقات الأطباء –ضبطه وصححه ووضع فهارسه: محمد باسل عيون السود –دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط1 – 1419هـ–1998م –ص401 وما يليها.

76- ابن خلدون: رحلة- ص70 وينظر التبكتي: كفاية المحتاج –ج2 –ص70.

77- الحفناوي: نفسه –ج1 –ص118.

78- سورة الرعد، الآية 19.

79- التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص72-74/نفسه- نيل الابتهاج- ص433/الحفناوي: نفسه –ج1 –ص114.

80- ابن خلدون: رحلة- ص70.

81- التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص76. الحفناوي: نفسه- ج1 ص118-119.

82- ابن خلدون: رحلة –ص70.

83- الزوزني: مختصر تاريخ الحكماء –ص418. ابن أبي أصيبعة: نفسه –ص419.

84- تنظر ترجمته عند الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس –قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه: صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية صيدا- بيروت- ط1- 1426هـ–2005م- ص54.

85- ابن خلدون: نفسه- ص70. وينظر التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص71.

86- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ط7- 1415هـ–1994م. ج2 –ص211.

87- التبكتي: نيل الابتهاج –ص437. الحفناوي: نفسه- ج1 –ص119.

88- الحفناوي: نفسه –ج1 –ص117.

89- التبكتي: نيل الابتهاج –ص436. الحفناوي: نفسه –ج1 –ص117.

90- نفسه –ص437. نفسه –كفاية المحتاج –ج2 –ص76.

91- مخلوف: شجرة النور الزكية –ص234.

92- الحفناوي: نفسه –ج1 –ص118.

93- التبكتي: كفاية المحتاج- ج2 ص76/نفسه- نيل الابتهاج- ص437/مخلوف- نفسه- ص234.

94- الونشريسي: المعيار –ج2 –ص47.

95- نفسه –ج9 –ص268.

96- نفسه –ج11 –ص362.

97- نفسه –ج12 –ص163.